نظرات قرآنية

الأمر بالمعروف

للدكتور/محمد رجب البيومي

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) آل عمران/١٠٤

أوسع المفسرون كتاب الله عز وجل شرحا وتفسيرا ، فما تركوا – على ممر العصور – آية كريمة دون أن يفيضوا في تحليلها ، وأن يذكروا كل احتمال في تأويلها ، وقد تتعدد الآراء في الآية الواحدة ، إذ يفتح الله على مفسر بغير ما يفتح به على مفسر آخر من التأويل ، ولكل دليله الناهض ، وتبريره المرجح ، وهذا من تيسير الله للذكر ، إذ هيأ من يشرحه على شتى احتمالاته ، وسبيلنا اليوم إذا أردنا أن نفسر آية كريمة أن نذكر ما قيل في شرحها من وجوه ، وأن نختار ما نميل إليه من التوجيه ، بأدلة توجب هذا الاختيار ، على الا نغفل رأي المخالف بل نذكره دون تجريح أو تشهير ، لأن طلب الحقيقة في ذاتها يدعو إلى الجدال العاقل والمناقشة بالتي هي أحسن .

وقد قرأت قريبا تفسيرا لقول الله عز وجل : **(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** فوجدت صاحبه ينقل أحد الرأيين في الآية ، وينسبه للامام الزمخشري ويذكر أدلته الظاهرة في تأييده ، ثم يذكر الرأي الآخر لائما منددا محقرا ، ويذكر أصحابه بالتجريح مع أنهم أئمة فضلاء ، وقد خالف الكاتب وجه الحق في موضعين : **الأول** : أنه حين نسب رأيه للزمخشري أوهم القارئ أن

صاحب الكشاف لم يذكر غيره ، مع أن الزمخشري ذكر الرأيين معا ولم يرجح أحدهما على الآخر إلا بما يستشفه صاحب الذوق الفني من خلال السطور ، وهو استشفاف ذاتي لا يعدم من يستشف سواه لانطباع آخر ، لأن العبارة غير حاسمة ، **والموضع الثاني :** أنه حين خالف رأي غيره لم يذكر دليله ثم يكر عليه بالتوهين ، بل اكتفى بالخطابية السيالة في عبارات إن جازت في خطابة العامة فلا تجوز في مجال الكتابة التحليلية ، والدرس البصير ، وهأنذا أناقش الرأي لاصاحبه ، ومن عادتي أن أغفل اسمه حين ألجأ إلى تخطئته ، كيلا يتوهم أحد أننا نقصد التخطئة لنكشف صاحبها ، مع أننا جميعا طلاب حقيقة دون نزاع !

لقد تعرض الزمخشري لقول الله عز وجل : **(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** فقال رحمه الله :

(ولتكن منكم أمة) من للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته ، وكيف يباشره فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وقد يغلظ في موضع اللين ، ويلين في موضع الغلظ ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على ، من الانكار عليه عبث ، كالانكار على أصحاب المآصر ، والجلادين ، وأضرابهم ، وقيل : من **للتبيين** بمعنى وكونوا أمة تأمرون كقوله تعالى : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس)** آل عمران / ١١٠ .

هذا ما قاله الزمخشري بنصه ، فقد ذكر الرأيين معا ، ثم أتى بعد ذلك بأمثلة ورد عليها ، فدل على أنه لا يرجح أحد الرأين على الآخر ، ولكن الكاتب الفاضل قد أغفل رأيه الثاني ومضى في تجريح قائليه وكأنهم ليسوا أئمة من كبار المفسرين بل كأنهم طلبة يتخبطون مبتدئين ، مع أنهم أشبعوا رأيهم تأييدا وتدليلا وجاءوا بما يشفى صدور الباحثين ، ونستطيع أن نقدم خلاصة للباب ما قالوه في هذه النقاط .

أولا : قال الله تبارك وتعالى في سورة العصر : **(والعصر . إن الانسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)** سورة العصر ، فجعل التواصي بالحق وهو الأمر بالمعروف سبيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جميعا ، ولم ينص على فريق دون فريق .

ثانيا : قال تعالى : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** فجعل الخطاب للمؤمنين جميعا ، ولم ينص على فريق دون فريق ، وانن فقد كانوا خير أمة لأنهم جميعا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

ثالثا : قال الله تبارك وتعالى متحدثا

عن بني إسرائيل : **(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)** المائدة/٧٨ و٧٩ .

فحقت عليهم اللعنة ــ وهي عقوبة شديدة حاصلها الطرد من رحمة الله والبعد عن غفرانه ، اذ كانوا يرون المنكر ذائعا شائعا ثم لا يتناهون عما يفعلون من المناكر فلعنوا على لسان داود وعلي لسان عيسى ابن مريم ، وقد روى أبو داود عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول ما دخل النقص على بني اسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : ياهذا ، اتق الله ، ولا تصنع الشر ، فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه في غد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله أو شريبه أو قعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم تلا رسول الله قول الله عز وجل : **(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)** وكان رسول الله متكئا فجلس ثم قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسئ ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم » .

ومع هذه الآيات وأمثالها طائفة من الأحاديث الصحيحة مثل ما روى البخاري عن النعمان بن بشر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

أ ــ « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأخذ كل واحد منهم نصيبا ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء يمرون به على الذين في أعلاها فتأذوا ، فقال الذين في أسفلها : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فأخذ أحدهم فأسا ، فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا : مالك قال : تأذيتم بي ، ولابد لي من الماء ، فان أخذوا على يديه ومنعوه أنجوه ، ونجوا أنفسهم ، وان تركوه هلك وهلكوا » .

ب ــ روى مسلم وغيره من أصحاب السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكرا ، فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

جـ ــ روى أصحاب السنن عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ، وتؤولونها على خلاف تأويلها : **(يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** المائدة/١٠٥ . واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم عملوا بالمعاصي ، وفيهم من يقدر على أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

هذه ثلاث آيات ، وهذه ثلاثة أحاديث ، وللآيات والأحاديث نظائر

كثيرة يضيق المجال عن سردها وفيها مقنع أي مقنع لمن يجعلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمرا عاما ، فهم ليسوا بأدعياء في العلم كما حاول الكاتب أن يصمهم في استعلاء لا داعي له .

ولنا أن نكر على ما قاله الزمخشري خاصا بالرأي المخالف فنقول :

إن قول صاحب الكشاف انه لا يصلح للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا من علم المعروف والمنكر وكيف يرتب الأمر في اقامته وكيف يباشر فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ! هذا القول يدل على أننا نريد من كل مسلم أن يلى الفتوى أو القضاء أو الحسبة ! حتى نشترط هذه الاشتراطات ، ولكن المسألة لا تخرج عن الأمور العامة التي يعرفها كل مسلم ، فالحلال بين والحرام بين ، وكل مسلم يعرف أن الله أمره بواجبات عليه أداؤها ، ونهاه عن محرمات عليه اجتنابها ، هذه الواجبات المسلمة ، وتلك المحرمات المشتهرة هي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل انسان ، وإذا كان على كل مسلم أن يعلم ما أحل الله وما حرم في أمور دنياه فقد وجب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

ولنا أن نشير إلى ما فهمه بعض السذج من حديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » حيث فهم ان الانكار القلبي لدى غير المستطيع في الحالة الثالثة هو الاكتفاء بالسكوت الظاهري ، ولكن المراد غير ذلك إذ على المنكر بقلبه ان يشيح عن مجالس العصاة ، وأن يظهر الضيق النفسي لمن يحادثونه عن مخازيهم ، فاذا أجمع الناس على مقاطعتهم ، ونظروا فوجدوا السخط الصامت ، والغضب النافر أدركوا ما وراء الصمت من استنكار ، وعلموا أن عدم الاستطاعة وحدها من الأشياء التي حالت دون المجابهة ، واذ ذاك يضطرون الى ارضاء المجتمع ، إذ لا حياة سعيدة لهم بدونه ، أما لو كان معنى الانكار القلبي مجرد الصمت مع المخالطة والمعاشرة والمهاشة والترحيب فلا قيمة اذن له ، وهذا بعض ما يفهم من قول الله عز وجل : **(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)** ٦٨/الانعام .

هذا لباب ما يمكن أن أوجزه في هذا النطاق ، ولعل الذين يكلفون باستعراض وجهات خاصة من شتى الجهات المختلفة في تفسير الآية الواحدة أن يعلموا أن القارئ ذو حق صريح في أن يستكمل معرفته التامة لما يطالع من المسائل ، وأنه لا يجوز أن نكتم شيئا ونظهر شيئا آخر ، وكلنا طلاب حقيقة ، فلا علينا إذا كان ما نخالفه من الرأي يجد تأييده عند غيرنا ، بل علينا أن نساعد على جلاء الحقيقة بالنظر إلى شتى الزوايا المتقابلات .